ثنائيَّة السَّبْكِ والحَبْكِ في اللغة والأدب

عبد الوهاب خلف الله إمبيَّة

كلية الآداب ـ جامعة سبها

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة النظام الذي تتبعه اللغة العربية في جانب من تركيب مفرداتها، ومظاهر الانسجام فيها، وفق ذلك النظام التركيبي القائم على الائتلاف بين المعاني والألفاظ.

وقد أشارت هذه الدراسة إلى بيان ما في اللغة العربية من أفكار وإنجازات علمية نافعة قدَّمها السلف الصالح من جهة، وإزالة ما علق بها من غبار النسيان من جهة أخرى، إذ تمثل إنجازات اللغويين السابقين حلقةً هامة من حلقات الفكر اللغوي، كما أنَّها تتفق مع كثير من الأفكار والآراء التي جاء بها علم اللغة الحديث، فجاءت هذه الدراسة لتبين الصلة بين علوم العربية في تراثنا العربي، ومعطيات علم اللغة الحديث .

وقد وقفت هذه الدراسة على تبصرات القدماء ومنظوراتهم إلى خاصيتي (السبك والحبك) وتسعى من وراء ذلك إلى تحليل النص العربي تحليلاً مناسباً، فعلم لغة النص وتحليل الخطاب أفضل نقطة يلتقي عندها علم البلاغة وعلم اللغة، وتأمل هذه الدراسة أن تكون خطوة على طريق توثيق الصلات بين علم البلاغة، وعلم اللغة توثيقاً يفيد منه كلا العلمين، وذلك بأن يدفع علم البلاغة علم اللغة إلى تجاوز حدود التقليدية إلى علم الاتصال و التداولية ونحوها، وبأن يدفع علم اللغة علم البلاغة إلى تجاوز إطاره التقليدي، إلى معالجة إشكاليات نصية مهمة من منظور لغوي، مثل تخطيط النص، ومعرفة كيفيات تدرج المضمون النصي، ومعرفة بُنى النص الكلية، وغيرها .

كان من أهم ما تمخضت عنه النظرية اللغوية الحديثة علم لغة النص، وكان من إسهامات علم لغة النص تحليل ما عُرف بمعايير النصية، ومعايير النصية هي المكونات التي تجعل النص كلاً موحداً متماسكاً دالاً، لا محض سلسلة من الكلمات والجمل غير المترابطة، هذه المكونات هي: السبك (**Cohesion**) ، والحبك (**Coherence**)،والقصد (Intentionality)، والقبول (Acceptability)، ورعاية الموقف (Situationality) ، والتناص (Intertextuality) .

وقد وقع اختيار الباحث على دراسة (السبك والحبك) باعتبارهما ثنائية مفهومية متجانسة، متخذاً من فحص مفهومهما ومرادفاتهما في التراث العربي وسيلةً لبلورة المفاهيم والمنظورات اللغوية والبلاغية ، وتوثيق الصلة بينها في تحليل الخطاب .

فقد برهن العلماء ـ القدماء منهم والمحدثون ـ على مكانة خاصيتي السبك والحبك اللغويتين، فمعيار الكلام الجيد عندهم هو المسبوك المحبوك، ودلّلوا على مظاهرهما دلالة واضحة من بينها المشاكلة والمواءمة، والتناسب، والمؤاخاة.

فالحبك أداة لغوية لفهم السبك فهماً أعمق، إذ نراه في روايات الجاحظ، وفي إشارات ابن قتيبة الدينوري، وابن طباطبا العلوي، والحسن بن وهب، وأبي هلال العسكري، وضياء الدين بن الأثير، عن الكلام المضموم إلى لفقه، والكلام الآخذ بعضه برقاب بعض، وانتظام المعاني، وتشاكل المصراعين، وإيتاء الموارد عن المصادر، والمشاكلة بين الألفاظ، وربط الحبك بالسبك.

فهذه المعايير في جيِّد الكلام وحسنه، وتبيان القول البليغ، وقف عليها علماؤنا القدماء من خلال نماذج استعمال لغوي حقيقي من منظور الحبك والسبك اللغويتين، فكشف هذا البحث عن مظهرهما، وعن العلاقات الدلالية بين النصوص في إطار انتظام المعاني واتصال الكلام.

السبك (Cohesion)، مصطلح يدل على تعلّق كلمات النص بعضها ببعض من أوله إلى أخره، أي: المكونات التي تجعل النص كُلاً موحداً متماسكاً دالاً، لا محض سلسلة من الكلمات والجمل غير المترابطة[1].

ومعنى السبك في اللغة كما يورده الصاحب بن عباد(إسماعيل بن العباس) ت(385) : السَّبْكُ: مَصْدَرُ سَبَكْتُ الفِضَّة وغيرَها. والسَّبِيْكَةُ: الذَّهَبُ والفِضَّةُ في مِسْبَكِهِ. وقيل:السَّبِيْكَةُ: المَكانُ الذي لا يَألُو أحَدٌ أنْ يَرْقاه (2).

وفي قراءة للدكتور تمام حسان السبك: هو إحكام علاقات الأجزاء، ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة، وقرينة الربط النحوي من جهة أخرى، واستصحاب الرتب النحوية، حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبي، ورعاية الاختصاص والافتقار في ترتيب الجمل(3).

وهذا الكلام يكاد يطابق معنى ما قاله هاليداي، ورقية حسن من انقسام السبك إلى سبك معجمي، وسبك نحوي(4)، وذكرا: إنَّ للسبك درجات، وهي تتوقف على عدد الوسائل المستخدمة ، فكلما ازداد عدد الوسائل السابكة في نص، ارتفعت درجة السبك فيه، ومن ثم درجة النصية، والعكس صحيح، كما أنَّ هذه الدرجة تتفاوت داخل النص الواحد، فقد تزيد في جزء وتقل في آخر،كما أنَّها قد تكون عالية داخل الفقرات، وهابطة فيما بين هذه .

ومصطلح السبك أوتر مقابلاً عربياً مناسباً بـ **(cohesion)** في الإنجليزية من قبل عدد من الباحثين أمثال الدكتور سعد مصلوح(5)، والدكتور محمد العبد(6)، والدكتور جميل عبد المجيد(7)، فقد قرر هؤلاء الباحثون أن مصطلح السبك أقرب شيء إلى المفهوم المراد، وأكثر شيوعاً في أدبيات النقد القديم. وقد ترجمه غيرهم إلى غير ذلك، حيث ترجمه الدكتور محمد خطابي إلى (الاتساق) في كتابه لسانيات النص ص11، وترجمه الدكتور سعيد بحيري إلى (الترابط)، في كتابه علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات ص120، وترجمه الأزهر الزناد إلى (التماسك) في كتابه نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً ص15.

أما الحبك (coherence)، فهو شدٌ وإحكام، قال ابن منظور في اللسان : (الحَبْكُ : الشّدّ) (8) وبه وُصِفت السماءُ بأنّها ذاتُ حُبُك .

والحبك هو حصيلة تفعيل دلالي ينهض على ترابط معنوي بين التصورات والمعارف، من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أنها شبكة دلالية مختزنة، لا يتناولها النص غالباً على مستوى الشكل، فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم الحبك الضروري وينشئه(9).

والحبك خاصة من خصائص إطار الاتصال الاجتماعي ، نراه في اشتراط مناسبة المطالع للمقاصد، ومقامات الاتصال، وأحوال المخاطبين، وما يروق للممدوحين سماعه في فصول المديح، فلا يمدح الشاعر بما هو بالرثاء أجدر، وأن يرعى دور المخاطب الاجتماعي، فلكل طبقة ما يشاكلها، فضلاً عن رعايته موقف الاتصال الخارجي، فلا يتغزل إذا كان الكلام في حادثة لا يناسبها الغزل .

والقول في الحبك كالقول في السبك حين قوبل عربياً بـ **(coherence)** في الإنجليزية، وقد أجمل الدكتور محمد العبد الأسباب التي دعته إلى إيثار مصطلح الحبك على غيره من المقابلات العربية التي قوبل بها المصطلح الأجنبي في الدراسات اللغوية والمترجمات الحديثة إلى الأمور التالية:

1. إن الحبك يصنع مع السبك ثنائية مفهومية متجانسة، مما يرسخ مدلوله الاصطلاحي ترسيخاً أقوي مقارنة بنظائره.
2. إن الجمع بينه وبين قرينه السبك سوف يساعد في اختصاص معناه بمجرد إطلاقه، وهو ما لا يتوافر لمفاهيم أخرى، كالملاءمة والائتلاف ونحوهما.
3. بالنظر إلى الحبك في اللغة، فإنه يبدو أدل من غيره على ما يكون من صانع النص من توزيع علاقات الحبك وربطها بين وحدات النص الجزئية من أجل تشييد وحدته النصية الكلية(10) .

والحبك القول فيه أن العلماء قد وعوا بخاصيته اللغوية في الكلام والنصوص، فحين عاب ابن قتيبة (ت267هـ) على الشعراء التكلف في الشعر إذا جاءوا بالبيت مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لفقة(11)، وهو في ذكره الشعر، ويسري هذا على شتى أجناس القول بالطبع، إذ لا نتصور مجاورة حقيقية بين المنطوقات من غير أن تتحقق بينها علاقة دلالية ما.

إذن يكون السبك والحبك ثنائية مفهومية في حقل علم لغة النص وتحليل الخطاب، فيربط السبك بين عناصر سطح النص، ويكمن الحبك بين عالمه النصي، أي أنهما يشيران إلى كيفية تكيف العناصر التي تتكون بعضها مع بعض في صنع المعنى ففي التراث اللغوي والنقدي والبلاغي عند العرب في مفهوم السبك والحبك، نجد استخدامات لهذين المصطلحين، إما بالتصريح أو بالتلميح في وصفهم للنصوص بأشكالها المختلفة، ويذكرون صفة الاستمرارية، أو الاطراد التي تميز الشعر أو غيره، على مستوى الجملة أو البيت غالباً (المتلاحم الأجزاء)، والمعيار المختص برصد هذه الاستمرارية وتجسيدها، هو (السبك)، وبذا يتبين لنا أنَّ السبك يلعب دوراً خاصاً في خلق النص.

فالجاحظ (ت 255هـ) قال: ((وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أُفرِغَ إفراغاً جيِّداً، وسُبِكَ سَبْكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان)) (12). هذه الإشارة الوجيزة في كلام الجاحظ تعكس قوة الترابط الدلالي بين سلاسل المنطوقات، وتعكس وعي منتجي النصوص أنفسهم بأنَّ إنتاج النص قدرة على القصد، يظهرها المتكلم تجاه الملابسات والظروف التي ينتج فيها نصاً، ويحاول فيها أن يجعل هذا النص مفهوماً من خلال تسلسل المعلومات على شكل منطقي، كما يقرر أسامة بن منقذ.

إذ أورد أسامة بن منقذ (ت530هـ) باب الفك والسبك، وفيه عرّف السبك بقوله: وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى أخره، كما يقول زهير بن أبي سلمى:

يَطعَنُهُم ما اِرتَمَوا حَتّى إذا اِطَّعَنوا

ضارَبَ حَتّى إذا ما ضارَبوا اِعتَنَقا

ولهذا قال: ((خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض))(13) .

فلعل في قول أسامة السابق ما ينبه إلى وعيه بأثر معياري الحبك والسبك، بخاصة في صناعة الكلام أو النص فضلاً عمَّا يمكن أن يلمح إليه تقديم الحبك من عناية واهتمام.

وتذكر ثنائية السبك والحبك عند أسامة بن منقذ بثنائية الجسم والروح عند ابن طباطبا العلوي(ت322هـ)، فإذا كان السبك جسم الكلام فالحبك روحه (الجسم اللفظ) و(الروح المعنى) اللفظ إتقان، والمعنى إبداع، وواجب على صانع الكلام تحسين الجسم وتحقيق الروح. وذلك حين يقول: ((فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة محكمة لمحبة السامع له، والناظر بعقله إليه... فيحسنه جسماً ويحققه روحاً، أي: يتقنه لفظاً ويبدعه معنىً)) (14) .

وتتجلى علاقة التقابل في فن المقابلة، ففيها يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها أو يتقابلها على الترتيب وذلك كما في قول المتنبي:

فلا الجودُ يُفنِي المالَ والجدُّ مقبلٌ ∴ ولا البخلُ يُبقِي المالَ والجدُّ مدبرٌ (15) .

ففي مثل هذا الشاهد تعاضد التوازي التركيبي الصوتي مع التقابل الدلالي مما جعل البيت مسبوكاً محبوكاً كما يقرر الدكتور جميل عبد المجيد(16)، فهذا التعاضد هو أفضل أنواع المقابلة عند ابن رشيق، إذ نجده يعقّب على قول النابغة الجعدي:

فَتىً تَمَّ فِيهِ ما يَسُرُّ صَديقَهُ

عَلى أنَّ فِيهِ ما يَسُوءُ الأعاديا

يقول: فقابل يسر بـ(يسوء)، وصديقه بـ(الأعادي) وهذا جيد، وقال أيضاً في قول عمر بن معدي كرب الزبيدي:

ويبقى بعدَ حِلْمِ القومِ حِلْمِي

∴ ويَفْنَى قبلَ زادِ القومِ زَادِي

فقابل (يبقى بعد) ثم قال: (يفنى قبل) فهذا كما أردنا (17) ، أي أنَّ البيت جاء عنده مسبوكاً محبوكاً.

وكذلك نجد هذه الثنائية عند الثعالبي (ت429هـ) في كتابه (لباب الآداب) في وصف حسن الخط ، فقال فيما قال: خط كالتبر المسبوك و الوشي المحبوك

وابن شرف القيرواني (ت460هـ) أورد هذه الثنائية في رسائله : (رسائل الانتقاد)، حين وصف مرثية أبي ذؤيب الهذلي بأنّها نقية السبك متينة الحبك .

وأورد أبو الوليد الإشبيلي (ت440هـ) في كتابه (البديع في وصف الربيع): أنّ لأبي جعفر بن الأبار في وصف الربيع قطعة جيّدة الحبك حسنة السّبك .

وحين وصف العماد الأصفهاني (ت597هـ) في كتابه (فريدة القصر وجريدة العصر) وصف الشاعر نشوان

الحميري بأنّه من شعراء الجبال، وأنّه فحل الكلام ، قويّ الحبك حسن السبك .

وحين تناول ابن الأثير (ت 637هـ) علّة تفضيل لفظ على أخر قال: ((ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه، وجل نظره. فانظر إلى سبك الأفعال كيف تفعل)) (18)

وقد وازن ابن الأثير بين كلمتين تردان في بيت الشاعر من منظور السبك وقال: إن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته ومنها ما لا يسهل، بل يرد ثقيلاً على اللسان، ولكلٍّ موضعٌ يخصُّهُ من السبك، وقد مثّل ابن الأثير لذلك بقول أبي تمام:

إلى خالِدٍ راحَت بنا أرحَبِيَّةٌ
مَرافِقُها مِن عَن كَراكِرِها نُكبُ

فقوله: (من عن كراكرها) من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به، على أنه قد وردت هاتان اللفظتان (من وعن) في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما،فكانتا خفيفتين كقول قطريٍّ بن الفجاءة:

فَلَقَد أراني لِلرِّماح دَرِيئَةً
مِن عَن يَميني مَرَّةً وَأَمامي

قال معلقاً: ((والأصل في ذلك راجع إلى السبك، فإذا سُبكت هاتان اللفظتان أو ما يجري مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما، لم يكن بهما من ثقل، كما جاءتا في بيت قطري، وإذا سُبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت أبي تمام)) (19)

وورد عند ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ) في باب الانسجام، وقد عرّفه بقوله: ((وهو أن يأتي الكلام متحدراً كتحدر الماء المنسجم بسهولة سبك، وعذوبة ألفاظ، وسلامة تأليف حتى يكون للجملة من المنثور، والبيت من الموزون وقع في النفوس، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره)) (20)، وفي تعريفه للاطراد يقول أيضاً: ((هو أن تطرد للشاعر أسماء متتالية يزيد الممدوح بها تعريفاً، لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه تأتي منسوقة صحيحة التسلسل غير منقطعة من غير ظهور كلفة على النظم، ولا تعسف في السبك، بحيث يشبه تحدّرها باطراد الماء لسهولته وانسجامه)) (21).

وقال أبو هلال العسكري(ت395هـ) : ((ينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره، ومطابقاً هاديه بعاجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها مقرونة بلفقها))(22)، جعل أبو هلال في نصه السابق الاشتباه والمطابقة، وتلاؤم الأجزاء أموراً واجبة في صنعة الكلام،وقد أوجب أبو هلال في صنعة الكلام شروطاً أجملت في الآتي:

أ- تخير الألفاظ على ما يوجب التئام الكلام.
ب- أن يكون موقع الكلام في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحق بالمقام والحال.
جـ- أن يكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره.

فإنباء موارد الكلام عن مصادره، وكشف أوله قناع آخره مظاهر دالة على توفر خاصية الحبك بين أجزائه، قال الدكتور محمد العبد معلقاً: ((في كلام أبي هلال ما يفيد وعيه بتناسق حقول الدلالة بين أجزاء الكلام، كما يفيد وعيه بإحدى العلاقات الدلالية التي توفر للخطاب حبكاً، وهي علاقة التفسير، تفسير المجمل وما زلنا نرى إشاراته إلى اشتباه أول الكلام بآخره، ومطابقة هوداية لأعجازه ما يجمعها بمبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام عند ابن طباطبا)) (23).

فتمام الكلام والجيد المختار فيه عند أبي هلال هو ما يتم قضية، إذ يأتي الجزء فيه مع لفقه فيجعل الكلام يبلغ عنده أعلى مراتب التمام، وهذا ما ينتهي إليه الحد في صنعة الكلام .

ويقول أيضاً تعقيباً على أبيات للنمر بن تولب: فهذه الأبيات جيِّدة السبك حسنة الرصف، ويورد أبو هلال أيضاً في كتابه (الأوائل) في وصف صنعة الخط ، وذلك حين تخاير غُلامان في خطيهما إلى سهل بن هارون ، فقال : هذا وشي محبوك ، وهذا ذهب مسبوك، تسابقتما إلى غاية فتوافقتما في نهاية .

أما ابن طباطبا العلوي (ت322هـ) فيقول: ((وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورهما أو قبحه، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه فلا ينتبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه))(24).

فإنَّ أكثر ما استنبطه هؤلاء العلماء من كلام العرب من فنون البلاغة المتعلقة بالمعنى، إنَّما تظهر علاقات دلالية مختلفة بين المنطوقات والمفاهيم يتحقق من خلالها السبك والحبك .

إنَّ انتظام المعاني واتصال الكلام في إشارة ابن طباطبا أمور ينبغي لها أن تفهم في ضوء مبدأ الاستمرارية المعنوية التي توفر للخطاب حبكاً طولياً هو نواة أبنيته الصغرى، كما توفر له حبكاً كلياً هو نواة أبنيته الكبرى.

فاتصال الكلام وانتظام المعاني يؤديان بالضرورة إلى المشاكلة بين أجزاء القول، لما كانت المشاكلة مما يحوج إلى دقة نظر ولطف فهم، فقد غاب عن رواة الكلام ما لم يغب عن أصحابه، ففي ضوء مبدأ الانتظام المعنوي والاتصال الكلامي يمكن أن ننظر إلى ما وقع فيه الخلل بين الرواة نظرة مقابلة بين نص الشاعر، ونص الراوي، فربما كان الكلام في نص الراوي متشاكلاً؛ ولكنه في نص الشاعر أشكل وأدخل في استواء النهج.

فقد كانت مراعاة المشاكلة من منظور السبك والحبك بين شطري البيت مثار نقاش وجدل في النقد العربي القديم، كالذي أثير حول بيتي امرئ القيس:

كأنّـيَ لـم أركب جواداً للذّةٍ
∴ ولم أتبطن كاعباً ذاتَ خِلخال
ولم أسبـأ الزقّ الـروَيّ ولم أقل
∴ لخيلي كُرَّي كرَّةً بعد إجفال

قال ابن طباطبا: هما بيتان حسنان، ولو وُضع مصراع كل واحد منهما في موضع الأخر كان أشكل، وأدخل في استواء النسيج فكأن يُروى:

كأنيَ لم أركب جواداً ولم أقل
∴ لخيلي كُرَي كرَةً بعد إجفال
ولم أسبأ الزقّ الـرويَّ للذة
∴ ولم أتبطن كاعباً ذاتَ خِلخال (25)

يقضي مبدأ انتظام المعاني واتصال الكلام أن يكون نصّ الشاعر هو المتمتع بالمشاكلة؛ وقد خفي على منتقدي هذين البيتين وجه المشاكلة، وتوهموا أن يقرن ركوب الجواد بقوله للخيل كرَّي ليكون الحديث عن الخيل في الشطرين، وأن تقرن لذّة الشراب بلذّة النساء في البيت الثاني، وذلك أنّ ركوب جواده في المصراع الأول يشاكله أمر خيله بالكر في المصراع الثاني، فالكلام هكذا متصل؛ والمعاني هكذا منتظمة، وهذا ما دقّ ولطف على الراوي، فلم يفطن إليه في نصّ روايته.

ويقول ابن رشيق فيما ينقله حول انتقاد البعض للبيتين قال: ((إنَّ قول امرئ القيس أصوب، ومعناه أعز وأغرب، لأنَّ اللذة التي ذكرها إنَّما هي للصيد، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساءَ، فجمع في البيت معنيين، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة، وفضيلة شريفة تدل على السلطان، وكذلك البيت الثاني، لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشواً لا فائدة فيه، لأن الزق لا يُسبأ إلا للذّة، فإن جعل الفتوّة كما جعلناها فيما تقدم للصيد قلنا: في ذكر الزق الرويّ كفاية، ولكنّ امرأ القيس وصف نفسه بالفتوّة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة)) (26).

فنص الشاعر، ونص الراوي مقابلة بين نص مسبوك محبوك، ونص مسبوك فحسب.وكما أُخذ على بيتيّ امرئ القيس من هذا المنظور أُخذ كذلك من بعده على قولٍ لأبي الطيب المتنبي في بيتين له:

وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ.
∴ كأنّك في جفن الردى وهو نائمُ

تمُرُّ بكَ الإبطالُ كَلْمَى هزيمةً
∴ ووجهُكَ وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

ففيما يَرويه ابن الأثير قال: وقد أخذ على ذلك، وقيل لو جعل آخر البيت الأول آخراً للبيت الثاني، وآخر البيت الثاني آخراً للبيت الأول لكان أولى(27).

ولذلك حكاية وهي أنه لما استنشده سيف الدولة الحمداني يوماً قصيدته التي يقول في أولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
∴ وتأتي على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ إلى هذين البيتين قال سيف الدولة: قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس بيتاه، فبيتاك لم يلتئم شطراهما؛ كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس، وكان ينبغي لك أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف
∴ ووجهك وضَاح وثغرك باسم

تَمُرُّ بك الأبطال كلمى هزيمةً
∴ كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي: إن صحَّ أنَّ الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ أنا، ومولانا يعلمُ أنَّ الثوب لا يعلمه البزّاز كما يعلمه الحائك، لأن البزَّاز يعرف جملته، والحائك يعرف تفاصيله، وإنَّما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب

للصيد، وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وكذلك لما ذكر الموت لا شك في صدر البيت الأول أتبعته يذكر الردى في أخره؛ ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوساً وعينه باكية، قلتُ: ووجهُك وضَاحٌ وثغرُك باسمُ، لأجمع بين الأضداد(28) .

فقد خفي على سيف الدولة وجه المشاكلة في البيتين، وتوهم أن المناسب أن يقرن وقوفه والموت لا شك فيه، لواقف بوضوح الوجه وابتسامة الثغر، لأن هذا يدل على تناهي شجاعته، إذ يضحك في مقام البكاء، ويشرق وجهه حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه، وأن يقرن مرور الأبطال كلمى مهزومين بسلامته، كأنه في جفن الردى وهو نائم، لأن ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة.

ومن منظور الحبك و السبك في النصِّ لم ير ابن طباطبا توفرهما في نص الشاعر فحسب، بل تعداه إلى أن يكون مع نصِّ شاعرٍ آخرَ حتى يتوافر السبك والحبك، كقول ابن هرمة:

وَإنّي وَتَركي نَدى الأكرمين وَقَدحِي بِكَفّيَّ زَنداً شِحاحا
كَتاركَةٍ بَيضَها بالعَــراء وَمُلبِسَةٍ بَيض أُخرى جَناحا

وقول الفرزدق:

وإنك إذ تهجو تميماً وترتشي سرابيلَ قيس أو سحوق العمائم
كمُهْرِيق ماءٍ بالفلاةِ وغَرَّهُ سرابٌ أذاعتـه ريـاحُ السمـائم

قال ابن طباطبا: كان يجب أن يكون بيت لابن هرمة مع بيت للفرزدق، وبيت للفرزدق مع بيت لابن هرمة، فيقال:

وإنك إذا تهجو تميما وترتشي سرابيل قيس أو سحوق العمائم
كتاركةٍ بيضَها بالعراءِ وملبسةٍ بيضَ أخـرى جناحـا

حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعاً، وإلا كان تشبيهاً بعيداً غير واقع موقعه الذي أُريدَ له، وقد قصد ابن طباطبا بالموقع الذي أُريد له: هو موقع السبك والحبك في النص.

وقد تأمَّل ابن طباطبا أشعار القدماء من منظور السبك والحبك ولم يعدم فيها أبياتاً مختلفة المصاريع، كقول طرفة بن العبد:

وَلَستُ بِحَلّالِ التِلاعِ مَخافَةً وَلَكِن مَتى يَستَرفِدِ القَومُ أَرفِدِ

قال: فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول، وكقول الأعشى:

وَإنَّ اِمرَأً أسرى إليكِ وَدونَهُ فَيافٍ تَنوفاتٌ وَبَيداءُ خَيفَقُ
لَمَحقوقَةٌ أن تَستَجيبي لِصَوتِهِ وَأن تَعلمي أنَّ المُعانَ مُوَفَّقُ

قال أيضاً: فقوله: (وأن تعلمي أن المُعان موفق) غير مشاكل لما قبله.

وقال في قوله:

أغر أبيض يستسقي الغمام به لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

قال: فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول وإن كان كل واحد منهما قائماً بنفسه.

قال ابن طباطبا معلقاً: وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيتاً على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نفض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً على ما شرطناه، حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً، كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم، لا تناقض في معانيها،ولا في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقراً إليها. فإذا كان الشعر على هذا المثال سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إليها رواية، وربما سبق إلى إتمام مصراع منه إصراراً يوجبه تأسيس الشعر. (29)

أما عدم انتظام المعاني من هذا المنظور فنجد صداه في تحليل الخطاب الشعري عند الآمديِّ (ت 370هـ) وهو يرد على مطلع قصيدة للبحتري:

هَبِ الدارَ رَدَّتْ رَجعَ ما أنتَ قائِلُه وَأبدى الجَوابَ الرَبعُ عَمّا تُسائِلُه

قال الآمديِّ: ((وهذا بيت غير جيِّد، لأنَّ عجز البيت مثل صدره ، سواء في المعنى، وكأنَّه بنى الأمر على أنَّ الدار غير الربع)) (30).

فهذا كلام غير مسبوك، فلم يتصل الكلام في العجز بالصدر اتصالاً يدفع إلى توالي المعلومات وتسلسلها، والانتقال من مذكور إلى جديد، بل سكن المعنى على المصراع الأول ،

فهذا الحكم على هذا المطلع لم يكن وليد المصادفة، وإنَّما انطوى تحت شروط القول البليغ، وما ينبغي توفره من معايير لغوية أساسية في صناعة الكلام، فحسن الابتداء من معايير تحليل النص الأدبي عند القدماء، وبحسن الابتداء يتمايز الشعراء، شُهر شعراء كثيرون به، من طليعتهم أبو الطيب وأبو تمام وأبو نواس، يرى ابن رشيق أنَّ جودة الابتداء من أجمل محاسن أبي الطيب، وأشرف مآثر شعره (31) .

ومن مظاهر السبك والحبك في منثور الكلام، قول عليٍّ رضي الله عنه في بعض كلامه : (أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وزخرف ونجّد ،وبنى وشيّد) ، قال ابن رشيق : فأتبع كُلّ لفظة ما يُشاكلها ، وقرنها بما يشبهها، إذ قابل لفظتين بلفظتين ، ووقع في الكلام تفرقة وقلّة تكلف.

وقد عبَّر ابن الأثير عن ذكر المشاكلة عند أبي هلال العسكري أو التناسب عند ابن رشيق باسم المؤاخاة بين المعاني، ولا شكَّ أنَّ المشاكلة والتناسب والمؤاخاة عند هؤلاء جميعاً إنَّما هي مظاهر للحبك في مصطلح أسامة بن منقذ، يقول ابن الأثير: ((أما المؤاخاة بين المعاني فهو أن يذكر المعنى مع أخيه لا مع الأجنبي، مثاله أن تذكر وصفاً من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه، ويلتئم به، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحاً في الصناعة وإن كان جائزاً)) (32).

وكان الحسن بن وهب (ت 337هـ) قد أضاف حسن النظم إلى حد البلاغة فقال: وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدِّها، وذكر الجاحظ كثيراً مما وصفت به، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدِّها، وحدُّها عندنا القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام، وحسن النظام وفصاحة اللسان، وزدنا حسن النظام، لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى، ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصير كل واحدة مع مالا يشاكلها، فلا تقع ذلك موقعه.

وقد ضرب ابن وهب على (السبك) مثلاً في قوله: فما أتى في نهاية النظر قول أمير المؤمنين (علي) في بعض خطبه: أين من سعى واجتهد وجمع وعدَد، وزخرف ونجدَ، وبنى وشيد قال: فأتبع كل حرف بما هو من جنسه، وما يحسن معه نظمه، ولم يقل: أين من سعى ونجدَ، وزخرف وشيَد، وبنى وعدَد، ولو قال ذلك لكان كلاماً مفهوماً، ومن قائمه مستقيماً، وكان مع ذلك فاسد النظم قبيح التأليف (33)

وفي تعليقه على كلام ابن وهب يقول الدكتور محمد العبد: لعلَّ كلام ابن وهب في علاقة المشاكلة المعنوية ما يؤكد مقولة ليفاندوفسكي: أنَّ الحبك شرط لغوي يُسهم في فهم السبك فهماً عميقاً إذا كانت العلاقة بين(بنى وشيَد) علاقة المشاكلة بين عنصري عبارة، فلا وجود لمثل هذه المشاكلة، إذا دخل في العبارة نفسها أحد هذين العنصرين مع أخر من عبارة أخرى.

سوف يغيب السبك على معنى جودة التأليف، إذا غاب الارتباط الدلالي بين المعطوف والمعطوف عليه، والتمييز في هذه الحالة لا يكون بين كلام مفهم وأخر غير مفهم، ولكنه سيكون بين كلام مفهم وأخر مفهم مسبوك محبوك.

وكان ابن رشيق قد أطلق على مثال ابن وهب السابق اسم (التناسب) وفسَره بإتباع كل لغة ما يشاكلها، وقرنها بما يشبهها(34).

ويجعل علماء لغة النص المحدثون للسبك و الحبك أهمية خاصة، فالحبك عند (كلاوس برنكر) : هو المفهوم النواة في تعريف النص، وهو يقع عنده في مركز علم لغة النص الموجه إلى النظام اللغوي.

ويرى كلٌّ من هاينمان ، وفيفيجر أنَّ وحدة النص لا تقاس بظواهر سطحية، ولكنها تقاس بالبحث عنها في البنية الدلالية الأساسية، التي تكشف عنها المسائل الدلالية الكبرى للأبنية المركبة، والحبك النصي (35) .

والسبك والحبك كما يقرره (ديبوجراند ودرسلر) أوضح معايير النصية، وإن كان لا يمكن لهما أن يقدما فواصل مطلقة بين النصوص في الاتصال الفعلي(36)، وحين حدد هذان العالمان سبعة معايير للنصية، أي ما يكون به المنطوق أو المكتوب نصاً، كان المعياران الأولان في ترابط النص ، هما معيارا السبك و الحبك، وهما المعياران المختصان بصلب النص، وقد بحثا الأدوات أو الوسائل اللغوية التي تؤدي إلى سبك النص، غير أنَّ كثيراً من هذه الأدوات أو الظواهر موجود في البلاغة العربية، وهذا ما أشار إليه الدكتور سعد مصلوح بقوله: ((وجدير بالذكر أنَّك ربما وجدت هذه الظواهر، بعضها أو جلُّها، في التراث النقدي و البلاغي عند العرب أشتاتاً وفرادى: لانصرافها إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة، ولعل في التراث البديعي من الثراء والخصوبة من هذه الوجهة ما يحفز الجادين من الباحثين إلى استفراغ وسعهم في إعادة تشكيل هذا العلم من منظور نصي))(37) ، ومن ثَمَّ كانت هذه الدراسة و غايتها .

أمَّا(ليفاندوفسكي) فيلخص زوايا النظر إلى الحبك في علم اللغة النصي في الآتي:

1. الحبك من حيث هو الشرط اللغوي لفهم السبك فهماً أعمق.
2. الحبك من حيث هو إحدى خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع، وبين مراجعها وهو ما يسمى بالارتباط المرجعي أو الإرشادي (**referential**).
3. الحبك من حيث هو إحدى خصائص الإطار الاتصالي الاجتماعي.
4. الحبك من حيث هو إجراء، ومن حيث هو حصيلة التلقي الابتكاري البناء(38).

وخلاصة القول: أنَّ العلماء قد برهنوا على مكانة خاصيتي السبك والحبك اللغويتين، فمعيار الكلام الجيد عندهم هو المسبوك المحبوك، ودلّلوا على مظاهرهما دلالة واضحة من بينها المشاكلة والمواءمة، والتناسب، والمؤاخاة.

فالحبك أداة لغوية لفهم السبك فهماً أعمق، إذ نراه في روايات الجاحظ، وفي إشارات ابن قتيبة الدينوري، وابن طباطبا العلوي، والحسن بن وهب، وأبي هلال العسكري، وضياء الدين بن الأثير، عن الكلام المضموم إلى لفقه، والكلام الآخذ بعضه برقاب بعض، وانتظام المعاني، و تشاكل المصراعين، وإيتاء الموارد عن المصادر، والمشاكلة بين الألفاظ، وربط الحبك بالسبك.

فهذه المعايير في جيِّد الكلام وحسنه، وتبيان القول البليغ، وقف عليها العلماء ـ القدماء والمحدثون ـ من خلال نماذج استعمال لغوي حقيقي من منظور الحبك والسبك اللغويتين، فكشف هذا البحث عن مظهرهما، وعن العلاقات الدلالية بين النصوص في إطار المشاكلة اللغوية.

الهوامش

1- محمد العبد (دكتور)، حبك النص، مجلة فصول، العدد 59، ربيع 2002م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 54.

2- الصاحب بن عباد (إسماعيل بن العباس أبو القاسم الطالقاني)،المحيط في اللغة،تحقيق محمد حسن آل ياسين، طبع بيروت، 1994 ، (سبك) .

3- تمام حسَان (دكتور)، موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية، ضمن كتاب (قراءة جديدة لتراثنا النقدي)، عدد 59، النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1995م، ص.789

4- نقلاً عن الدكتور جميل عبد المجيد، من كتاب البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1999م) ص123.

5- سعد مصلوح (دكتور)، نحو أجررومية النص الشعري، مجلة فصول، العدد الثاني خريف (1999م) ص154.

6- حبك النص ص55

7- جميل عبد المجيد (دكتور)، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1999م) ص77.

8- ابن منظور(محمد بن مكرم) لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 1999م مادة (حبك).

9- حبك النص ص55

10- المرجع السابق ص55

11- ابن قتيبة(أبو محمد الدينوري)، الشعر و الشعراء ، بيروت 1964م 1/25-26

12- الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة 67/1 .

13- أسامة بن منقذ(أسامة بن منقذ بن علي) ، البديع في نقد الشعر، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي ،والدكتور حامد عبد المجيد ، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، بدون تاريخ،ص163.

14- ابن طباطبا(محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي) ، عيار الشعر، تحقيق د. طه الحاجري، ود.محمد زغلول. سلام، ط الأنجلو مصر 1956 ص203 .

15- الخطيب القزويني(أبو عبد الله محمد بن سعد الدين)، الإيضاح في علوم البلاغة ، مطبعة محمد علي صبيح 1982 ص530-532 .

16- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص151 .

17- ابن رشيق(أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، نشر دار الجيل بيروت، الطبعة الخامسة، 16/2

18- ابن الأثير(ضياء الدين نصر الله بن محمد)، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تحقيق د.أحمد الحوفي

والدكتور.بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع و النشر القاهرة، 1/.164
19- المرجع السابق165/1
20- ابن أبي الإصبع(عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع)،تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر،تحقيق د.حنفي محمد شرف،مطابع شركة الإعلانات الشرقية القاهرة،1383ه ص429
21- المرجع السابق ص.430
22- العسكري(أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ص.141
23- حبك النص، ص61
24- عيار الشعر، ص259.
25- عيار الشعر، ص209 ، .210
26- العمدة، 1/.259
27- المثل السائر، 3/165-166.
28- يُنظر المثل السائر، 3/165-166، وعيار الشعر، ص165، والصناعتين، ص149-151،
29- المثل السائر، 3/.166
30- الآمديِّ (الحسن بن بشر بن يحيى الآمديِّ) الموازنة بين أبي تمام و البحتري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية ـ بيروت، د.ت، ص381
31- العمدة 1/217
32- المثل السائر3/145
33- ابن وهب (أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، 1967 ص163
34- العمدة، 1/258.
35- نقلاً عن الدكتور محمد العبد، حبك النص ص55
36-المرجع السابق ص55
37- سعد مصلوح(دكتور)، نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان الأول والثاني، يوليو أغسطس 1991 ص157
38- حبك النص ص55
39- المرجع السابق، 3/145